من التحدي إلى القمة

قصة نجاح زهران ممداني

تمكين TAMKEEN

KNO SCHOOLS
EMPOWERING HUMANITY

360i ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY | KNO SMART SCHOOLING

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس مجلس إدارة مجموعة تمكين الاستثمارية
رئيس مجلس أمناء سلسلة مدارس كينو الخاصة

في ليلة الرابع من نوفمبر 2025، شهدت نيويورك لحظة تاريخي~ة لن تُمحى من ذاكرتها بسهولة، فوسط هتافات الآلاف وصيحات الفرح التي ارتفعت في شوارع المدينة، وقف شاب لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره على منصّة النصر، ليعلن بداية عهد جديد...

عهد فوز زهران ممداني بمنصب عمدة نيويورك، ليصبح أوّل مسلم من أصول هنديّة يتولّى هذا المنصب الرفيع في أكبر مدينة أمريكيّة، محقّقاً إنجازاً تاريخياًّ بحصوله على أكثر من 50% من الأصوات، وهي سابقة لم تشهدها المدينة من قبل، فلم تكن تلك مجرّد نتيجة انتخابيّة، إنّما كانت رسالة عميقة تخبر العالم أنّ أبواب القيادة مفتوحة لكلّ من يحمل رؤية حقيقيّة وقلباً ينبض بحبّ الخدمة، دون النظر للون بشرته أو دينه أو جذوره....

فها هو زهران ممداني من أوغندا، يبدأ برحلة محفوفة بالتحوّلات والانتقالات منذ نعومة أظفاره، فقد انتقل مع عائلته إلى كيب تاون في جنوب إفريقيا وهو في الخامسة من عمره، ومن ثمّ إلى نيويورك بعد عامين، حيث بدأ بصناعة ذاته، بعيداً عن الضياع والتيه، وتحوّل لإنسان قويّ يصنع من كلّ تجربة درساً ومن كلّ تحدٍّ فرصة ينمو من خلالها، فقد كان لنشأته في بيئة تقدّر العلم والفن والفكر أثر عميق في تشكيل شخصيّته ودفعه لشقّ طريقه الخاصّ نحو القضايا التي تمس حياة النّاس العاديّين...

فعندما نتأمّل قصّة شخص حصل على الجنسيّة الأمريكيّة بالتجنيس عام 2018، أي قبل سبع سنوات فقط من فوزه بأرفع منصب في أكبر مدينة أمريكيّة، ندرك أنّ النجاح الحقيقيّ لا يُقاس بعدد السنوات التي قضيناها في مكان ما، بل بعمق التأثير الذي نتركه فيه، فقد واجه ممداني منذ البداية تحديات هائلة تمثّلت بصدمة الثقافة كمسلم ومهاجر في بيئة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، والحواجز اللغوية والاقتصادية التي بدأ من خلالها رحلته من الصفر، والتمييز النظامي الذي حال دون وصول الأقليّات إلى مراكز القرار، ولكنّ كلّ هذه العقبات لم تكن نهاية الطريق، بل كانت البداية الحقيقيّة لبناء شخصية استثنائيّة ترفض الاستسلام....

وفي الوقت الذي يحاول الكثيرون فيه إخفاء هوياتهم أو تلميع صورهم لتتناسب مع التيار السائد في عالم السياسة، فقد اختار ممداني طريقاً مختلفاً تماماً، فقد وقف أمام الجماهير معلناً بكلّ وضوح بأنّه شابّ ومسلم واشتراكيّ ديمقراطيّ مضيفاً إلى كلّ ما سبق، أنّه يرفض أنْ يعتذر عن كلّ هذا، فكان ذلك إعلان بجرأة عن ذاته، ورفض للتنازل عن قناعاته، وإصرار على أنّ الاختلاف ليس عيباً يجب إخفاؤه بل ميزة يجب الاعتزاز بها، وهذا ما جعله يلامس قلوب الملايين، فلم يخفِ ممداني هويّته الإسلاميّة بل جعلها جزءاً من رسالته التوحيديّة، مثبتاً أنّ الهويّة يمكن أنْ تكون مصدر قوّة لا ضعف، وأنّ النجاح الحقيقيّ يبدأ عندما نكون أنفسنا دون تزييف أو ادّعاء...

لقد كانت حملته الانتخابيّة درساً في كيفيّة التّواصل الإنسانيّ الحقيقيّ، إذ جمع بين قوّة التكنولوجيا ودفء اللمسة الإنسانيّة، فقد أجرى مقابلات مع بائعي الطعام في الشوارع حول التكلفة العالية لإدارة مشاريعهم الصغيرة، وكان يسأل الناس في الشارع عن أسعار الطعام، متحمّلاً الرفض المتكرّر دون أنْ يزعجه ذلك، فلم يكن يبحث عن الصور الدعائيّة المثالية أو اللقطات المصطنعة، بل كان يريد أنْ يفهم حقاً، وأنْ يسمع حقاً، وأنْ يشعر بمعاناة الناس اليوميّة، وهذا الاستماع الحقيقيّ حوّل الحملة من خطاب أحاديّ إلى حوار صادق، ممّا جعل الناخبين يشعرون بأنّهم ليسوا مجرّد أرقام في صناديق الاقتراع، إنّما شركاء حقيقيّون في صناعة المستقبل...

هذا وما ميّز ممدانيّ بشكل خاص استخدامه للغة العربيّة كجسر عاطفيّ مباشر مع أكثر من 800 ألف عربي في نيويورك، فاللغة بالنسبة له لم تكن مجرّد كلمات ينطقها، بل كانت جسراً يعبر من خلاله إلى قلوب الناس، فهذه اللغة لم تكن موجّهة للعرب فقط، إنّما كانت رسالة لكلّ الأقليّات والمهاجرين بأنّ هويّاتهم الأصلية ليست عاراً يجب التخلّص منه، إنّما كنز يجب الاعتزاز به، فقد كان يخاطب كافّة الأجيال بلغة بسيطة ومباشرة؛ من الشّباب في وسائل التّواصل الاجتماعيّ إلى كبار السّن في المقاهي، ومن المثقّفين إلى العمّال، ومن المسلمين إلى المسيحيّين واليهود وأتباع كافّة الأديان...

وبالتّوازي مع التّواصل المباشر في الشوارع، فقد قام ممداني ببناء حملة رقميّة ذكيّة حوّلت كلّ متابع إلى ناشط فعليّ، واستخدم التكنولوجيا لبناء جيش من المؤيدين، فكان كلّ منهم سفيراً للقضية التي يؤمن بها، واتّخذ من منصات التواصل الاجتماعي منبراً للتّواصل المباشر والصادق مع النّاس والردّ على استفساراتهم لسماع قصصهم، وبناء مجتمع رقميّ يؤمن بإمكانيّة التّغيير، فهذا المزج بين التواصل الرقميّ الفعّال والتّواصل الإنسانيّ الحقيقيّ هو ما خلق معادلة نجاح غير مسبوقة، فقد أثبت أنّ التكنولوجيا عندما تُستخدم بحكمة وإنسانيّة، تصبح جسراً إضافياً للتّواصل لا بديلاً عنه....

هذا وقد ركّز برنامجه الانتخابيّ على قضايا ملموسة تمسّ حياة الناس اليوميّة، فقد دعا إلى توفير الحافلات العامّة مجاناً، وتجميد الإيجارات في المساكن ذات الإيجار المستقرّ، ووعد ببناء 200 ألف وحدة سكنية جديدة بأسعار ميسرة ، وتقديم دعم لرعاية الأطفال الشاملة، وكان من أهمّ اقتراحاته فرض ضريبة 2% على الأثرياء، لتكون رسالة عدالة اجتماعيّة لا مجرّد رقم، فقد كان يقول بصراحة:

لا يمكن أنْ تستمرّ الأغلبية في دفع ثمن رفاهية الأقليّة المستفيدة، ولا يمكن أنْ تكون نيويورك مدينة للأثرياء فقط بينما يُطرد السكان العاديون من أحيائهم بسبب ارتفاع الإيجارات...

ورغم ذاك فإنّ الطّريق إلى النّصر لم يكن مفروشاً بالورود، فقد كان يواجه شخصيّات سياسيّة عتيدة لها نفوذها وتمويلها وعلاقاتها الراسخة، وحتّى الرئيس ترامب وصفه بأنّه شيوعيّ وهدّد بوقف التّمويل الاتّحاديّ عن نيويورك إذا فاز، ولكنّ كلّ هذا لم يثنه، بل زاده إصراراً، فحوّل انتقاده الشرس للنظام إلى برنامج إصلاحيّ عمليّ، وجمع تحالفاً غير مسبوق من المسلمين واللاتينيين والأفارقة والشباب وكلّ من يحلم بمدينة أكثر عدالة، وأثبت أنّ النقد البنّاء يمكن أنْ يكون مدخلاً للإصلاح لا مجرّد معارضة، وأنّ الغضب الشعبيّ عندما يُستثمر بحكمة يتحوّل إلى قوّة تغيير حقيقيّة....

وما ميّز ممداني أيضاً هو شخصيّته الطبيعيّة التي لم تكن مصطنعة أو متعلّمة في دورات القيادة، إنّما كانت شخصيّته جذابة نابعة من صدق المشاعر، ومن إيمانه الحقيقيّ بما يقوله، ومن قدرته على التّواصل مع الناس بمختلف طبقاتهم وأعمارهم، فقد كان يقنع الشاب الحالم والمسن المتشكّك على حدّ سواء، لأنّه كان يتحدّث من القلب إلى القلب، فطاقته الإيجابيّة كانت معدية، وقد جعلت الناس يؤمنون بأنّ التغيير ممكن، وأنّ الأحلام ليست رفاهية بل حقّ لكلّ إنسان، فلم يحاول أنْ يكون نسخة من أحد، بل كان نفسه بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وهذا بالذّات ما جعله استثنائياً في عالم مليء بالنّسخ المكرّرة والشخصيّات المصطنعة...

هذا وقد كان موقفه من قضايا العدالة الدوليّة واضحاً وشجاعاً رغم كلّ المخاطر السياسية، ففي عام 2023، قدّم مشروع قانون لحظر المنظّمات الخيرية في نيويورك من تقديم تبرعات لدعم المستوطنين الإسرائيليين، وفي نوفمبر من نفس العام، انضم إلى إضراب عن الطعام لمدة خمسة أيام دعماً لوقف إطلاق النار في غزة، ففي عصر يفضّل فيه الكثير من السياسيين الصمت تجاه القضايا المثيرة للجدل خوفاً على مستقبلهم السياسيّ، إلاّ أنّ ممداني قد اختار أنْ يقف مع ما يؤمن به مهما كان الثمن، فقد كان يعلم أنّ هذه المواقف قد تكلّفه أصواتاً، لكنّه آثر أنْ يخسر الانتخابات على أنْ يخسر مبادئه، وفي النهاية فقد أثبتت النتائج أنّ الناس تحترم الصدق والشجاعة أكثر من الحسابات السياسية الباردة....

ومن الجليّ أنّ انتخابات عمدة نيويورك قد شهدت أعلى نسبة إقبال منذ عقود، وهذا يعني أنّ الناس لم تعد راضية بالخيارات التقليدية، ولم تعد تريد المزيد من الوعود الفارغة والوجوه المكررة، فقد كانت تبحث عن شيء مختلف، عن صوت جديد، ورؤية تعكس احتياجاتها وطموحاتها الفعليّة، وعندما وجدت ذلك في شاب مسلم من أصول مهاجرة يتحدّث بصدق عن العدالة الاجتماعية، فقد خرجت بأعداد قياسية لتقول: نعم، هذا هو التغيير الذي نريده. ...

ففي ليلة الانتصار، عندما أعلنت النتائج، لم يهتف ممداني باسمه كما يفعل معظم السياسيين، ولكنّه بدلاً من ذلك، قال لمناصريه جملة ستبقى محفورة في التاريخ:

"هذا انتصار لكلّ صوت سمعته، لكلّ قصة تأثّرت بها، لكلّ حلم شاركتكم إياه، فأنتم لم تنتخبوني، أنتم اخترتم أنفسكم، ولقد منحتموني تفويضاً من أجل التغيير ومن أجل سياسة جديدة"...

فبهذه الكلمات البسيطة العميقة، يتجلّى جوهر قيادته؛ بالتّواضع في لحظة الانتصار، والاعتراف بأنّ النجاح هو جهد جماعي وليس إنجازاً فردياً، والإيمان بأنّ الناس هم صنّاع التغيير الحقيقيّين وأنّ القائد ما هو إلاّ أداة لتحقيق إرادتهم...

وبهذا الفوز يصبح ممداني أصغر عمدة منذ أكثر من مئة عام ويقود أكبر مدينة في الولايات المتحدة، وهذا يعني أنّ جيلاً جديداً يطرق الباب، فنحن أمام جيل لا يقبل بالواقع كما هو، بل يسعى لتغييره، جيل يرفض أنْ يختار بين هويّته ونجاحه، بل يصرّ على أنْ يكون نفسه بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، جيل يؤمن بأنّ العدالة الاجتماعيّة ليست رفاهية نفكّر فيها بعد تحقيق النمو الاقتصادي، إنّما هي أساس أيّ مجتمع يريد أنْ يكون إنسانيّاً حقّاً...

ومقابل هذا الفوز فقد ظهر ترامب معلناً موقفه من فوز ممدانيّ بأنّه يراه خطراً على سيادة وهويّة البلاد وإرثها وأمنها القوميّ، فقد قال معلّقاً: "لقد فقدنا جزءاً من سيادة الولايات المتحدة الأمريكيّة بعد نتائج الأمس"..

ورغم ذلك، فإنّ ممداني قد امتلك معادلات النّجاح الذهبيّة، من خلال تمسّكه بعناصر أربعة حيويّة متداخلة ألا وهي:

- التّواصل الرقميّ الفعّال الذي حوّل المتابعين إلى ناشطين.
- التّواصل الإنسانيّ الحقيقيّ الذي جعل كلّ فرد يشعر بأنّه مسموع ومهمّ.
- الرؤية الاقتصادية الجريئة التي واجهت الفساد والظلم بلا خوف.
- احتضان التنوّع بكلّ أشكاله كمصدر قوّة لا ضعف.

فهذه المعادلة لم تكن سراً خفيّاً أو حيلة تسويقية، إنّما كانت انعكاساً طبيعيّاً لشخص يؤمن حقّاً بما يقول ويعيش وفق قيمه في العلن والسر...

فقصة زهران ممداني تحمل دروساً تتجاوز حدود نيويورك أو أمريكا، فهي تذكّرنا بأنّ أعظم قوّة هي أنْ تسمع، وأعظم حكمة هي أنْ تفهم، وأعظم قيادة هي أنْ تخدم، وتخبرنا أنّ القيادة الحقيقيّة لا تبدأ من القمة، بل من القاعدة، ولا تبدأ بالكلام، بل بالاستماع، ولا تبدأ بالوعود، بل بالفهم العميق لمعاناة الناس وأحلامهم، وتثبت بأنّ التحدّيات ليست عقبات توضع في طريقنا لتوقفنا، بل هي دعوات خفيّة لاكتشاف قوّة لم نكن نعلم أنّها تسكن داخلنا....

فالبدايات الصعبة التي واجهها ممداني كمهاجر ومسلم في بيئة معادية أحياناً، لم تكن نقمة بل كانت النّعمة الخفيّة التي منحته القوة للصمود والاستمرار، فالنجاح الحقيقي، كما علّمتنا قصّته، يبدأ برؤية واضحة وإيمان راسخ، لا بموارد هائلة أو امتيازات موروثة، والمحطّات الفارقة في حياته كانت دائماً مرتبطة بالتعلّم المستمر، واختيار الفرص بعناية حتى لو بدت صغيرة في البداية، وبناء شبكة علاقات قوية مبنيّة على الثقة والتعاون لا على المصالح الضيّقة...

وفي الوقت الذي ندرك فيه جيداً بأنّ الوضوح يسبق الحركة، والنّجاح الحقيقيّ يبدأ بتحديد هدف واضح، ألاّ أنّه في عالم متغيّر بسرعة فقد وجب أنْ نكون مستعدّين لتغيير إستراتيجيّاتنا دون التّخلّي عن هدفنا النهائي، فالمرونة والتكيّف ليستا علامات ضعف إنّما علامات ذكاء وحكمة، والنّجاح نفسه ليس قفزة واحدة إلى القمة، بل هو عمليّة تراكمية من مئات الخطوات الصغيرة المتتالية...

ولكنّ الدرس الأعمق الذي تقدّمه قصة ممداني هو أنّ النجاح الحقيقيّ لا يُقاس بما حقّقناه لأنفسنا، بل بالفرق الذي أحدثناه في حياة الآخرين ،فالنجاح الذي يرفع صاحبه فوق الآخرين هو نجاح أجوف وقصير الأمد، أمّا النجاح الذي يرفع الآخرين معه فهو النجاح الذي يستحقّ الاحتفاء والذي يترك إرثاً حقيقياً، فمسؤوليّة النّجاح، كما فهمها ممداني، هي أنْ نستخدم كلّ ما وصلنا إليه من موقع أو تأثير لخدمة قضايا أكبر من مصالحنا الشخصية، لإحداث تغيير إيجابيّ في المجتمع، ولإعطاء صوت لمن لا صوت لهم...

فعندما يقف شاب مسلم من أصول أفريقيّة وآسيويّة، قادم من أوغندا عبر جنوب أفريقيا، ليحكم مدينة هي رمز للرأسماليّة العالميّة ومركز القوة الاقتصاديّة الأمريكيّة، فهذا يعني أنّ العالم يتغيّر، ويعني أنّ الحدود التي كنّا نظنّها صلبة بدأت تتصدّع، وأنّ الأحلام التي كنّا نعتبرها مستحيلة أصبحت ممكنة، ويعني أنّ الإنسانيّة، في نهاية المطاف، أقوى من الحواجز والتصنيفات التي نضعها لأنفسنا، ويثبت أنّ باب القمّة مفتوح لمن يمتلك الإرادة من مختلف الخلفيات، وأنّ الأحلام الإنسانيّة لا تعرف حدوداً دينيّة أو عرقيّة...

وهكذا فقد مشى زهران ممداني من الشّوارع إلى العمادة، ومن المجهول إلى التاريخ، ومن المستحيل إلى الممكن، لأنّه آمن أنّ التغيير يبدأ بأذن تسمع وقلب يفهم، وإرادة لا تلين، فهو قد رفض أنْ يختار بين هويته وأمريكيّته فجمعهما في قوّة واحدة، ولم يختر بين كونه مسلماً وتمثيل كلّ الأديان، فجعل الإسلام مصدر إثراء لا انقسام، وكانت رسالته للعالم واضحة بأنّ النجاح ليس في إخفاء هويتك، بل في استخدامها كجسر لا كحاجز...

ورحلة ممداني من شوارع نيويورك إلى قاعة المدينة رحلة تثبت أنّ القيادة الحقيقيّة لا تُورّث ولا تُشترى، بل تُكتسب بالعمل الجادّ والنزاهة والالتزام الصادق بخدمة الناس، فهو رمز لقصة تعيد الأمل لكلّ من يحلم بالتّغيير، وتقول له: نعم، التغيير ممكن، والأحلام قابلة للتحقّق، والطريق من التّحدي إلى القمة، مهما بدا طويلاً وشاقاًّ، يستحق أنْ يُسلك بكلّ ما نملك من إيمان وعزيمة وإصرار....

فقصة زهران ممداني ليست مجرّد قصّة فرديّة، بل هي نموذج يمكن الاقتداء به، وتأكيد على أنّ شعار "من التحدي إلى القمة" أعمق من مجرّد كلمات، إنّما هو واقع يعيشه من يمتلكون الإرادة، وهو تذكرة بأنّ البدايات الصعبة قد تكون النّعمة الخفيّة التي تمنحنا القوّة للصّمود، وأنّ الفشل والعثرات هي دروس طبيعيّة في رحلة النجاح وليست نهاية الطريق...